الأدب الماجن

بقلم النجدى ناصف

مفتش المعارف بملوى

هو هذا الذى تعرضه الكتب المتبذلة ، ويزجيه كثير من المجلات والصحف الأسبوعية ، فى لغته الفسلة الواهنة ، وموضوعاته التافهة المرذولة ، لا تقية فيها ولا تصوّن .

وأكثر ما يشيع هذا النوع فى عصور التفكك والانحلال ، وإبان التحول والانتقال من طور إلى طور ؛ لأن الأمة أيام الانحلال والتفكك تكون على حالة من وهن العزيمة ، وقصور الهمة ، وفساد المزاج - لا تكاد معها تستطيب غير الحياة اللاهية العقيم ، وما تنطوى عليه من عبث ومجون وإيثار للعافية فى جميع الشئون . وهى إبان التحول والانتقال تثور على التقاليد والعرف ، وتعمل فى غير هوادة لقلب الأوضاع وتغيير المقاييس . وهيهات مع هذه الحدة الغالبة أن تحسن تمييز الخبيث من الطيب ، أو تصبر على إنعام النظر فيما تمضى إليه : فيشتبه عليها الرائج والزّيف ، ولا تكاد تسلم من العثار والزلل .

ولا ريب أن الواجب الوطنى فى هاتين الحالتين - يقتضى كل ذى مقدرة أن يتقدم بنصيبه من العمل لخير أمته ، ودرء الخطر الاجتماعى الذى يتهددها . ولعل واجب الأدباء والمربين فى هذه السبيل أجل الواجبات قدرا ، وأعمقها أثرا ، وأقواها فعلا ؛ لأنهم بفضل مالهم من بلاغة وصحة منطق ، وسطوة برهان ، وسعة خيال ، وسيطرة على التربية - يستطيعون أن يقوموا العوج ، ويتداركوا الضعف ، ويثيروا المحجة ، ويبثوا الدعوة .

ونحن اليوم فى مستهل نهضة اجتماعية ، أى فى طور تحول وانتقال ، تشوبه بعض مساوئ الماضى . فلا بد من تعاون الجهود على سلامة هذه النهضة ، وتعهدها بأسباب القوة والاتزان ، حتى تستطيع التخلص من قيودها وأثقالها ، وتشب

شبابا صالحا : لاوهن فيه ، ولا شذوذ . فهل تراهم جميعا يضطلعون بهذا الواجب الحتم على النمط الذى يقضى به خير الأمة ، وتتطلبه حالة النهضة الحاضرة ؟ الأمر بين لا لبس فيه ولاخفاء ، فها نحن أولاء نشهد رجال التربية والتعليم على اختلاف واجباتهم ومناصبهم ، لا يألون الجهد فى الإصلاح والتجديد ؛ لتغذية النهضة ، وتنشئة المتعلمين تنشئة أساسها الرغبة فى إعدادهم للمستقبل إعدادا صالحا ، فى الأدب والثقافة والأخلاق ، ونرى بعض الأدباء يقصرون نتاجهم الأدبى فى الصحف والمؤلفات وما إليها - على فنون الأدب الجد ، ويربئون بأقلامهم أن تجول فى غير البحوث الخصبة الثمينة ، وبلغتهم أن تشوبها شائبة من العامية ، أو يصيبها مس من ركاكة أوضعف . فأدبهم فى الجملة أدب غنى كريم ، يشد أزر المدرسة ، ويظاهرها على أداء واجبها ، بما يعرض من متعة وجمال ، وما يبث من ثقافة وتهذيب ورياضة على التفكر وحب الاستزادة والبحث .

بيد أن نتاج هذا الأدب لا يساير النهضة فى نمائها واتساع محيطها ؛ لما يلقى أصحابه من عنت فى الطبع والنشر ، إذ ليس لهما بيننا شركات قوية منظمة ، كتلك التى فى الأقطار الراقية . ولولا أن بعض أدبائنا يستطيعون لأسباب خاصة أن يعتمدوا على أنفسهم فى طبع مؤلفاتهم ونشرها ، لفترت الحياة الأدبية ، ولم تجد لها مددا يذكر من غير كتب الأدب القديم التى تبعثها دار الكتب المصرية وبعض المطابع .

وثمة سبب آخر ، له قوته وشدة تأثيره : ذلك هو تناقص الإقبال على الأدب الجد ، وانصراف أكثر القارئين عنه ، حتى أصبح إخراج كتاب فيه عملا غير مأمون ، لا يقدم عليه من أكثر الأدباء إلا مغامر جرىء . ومهما يقل عن رواج بعض المؤلفات وشدة التهافت عليها ، فهو ولا ريب أقل مما يجب ، وأتفه مما يغرى بالإنتاج المطرد . على أن هذه المؤلفات لا تذاع فى مصر وحدها ، بل فيها وفى بعض الأقطار الشرقية كذلك . فهذا الذى يبدو من رواجها ليس سببه كثرة الإقبال فى مصر ، وإنما سببه تعدد الأسواق ومناطق التوزيع .

وما أظن هذا الكساد من قلة المتعلمين ، أو قلة الراغبين منهم فى القراءة ،

فإن أسعد المؤلفات حظا ، وأجلها بحثا وموضوعا . لا يباع منه على الاعلان ونشر الدعوة إلا قليل . بالاضافة إلى هؤلاء ، مهما تكن قلة عددهم ، أو زهادتهم فى فى القراءة والدرس . على أننا لا نعتقد أن جمهورنا المتعلم زاهد فى القراءة على الإطلاق ، وإن تكن رغبته فيها دون ما يجب على كل حال ، ولكننا نعتقد أنه يختص بالأدب الماجن أكثر أوقات القراءة ، ويؤثره على الأدب الجد بالاهتمال والبذل وحسن الإقبال ، إما استجابة لداعية الشباب أن يطلع ما فى هذا الأدب من أسرار الحياة اللاهية المترفة ، وهى من أهم ما يعنى به ، ويفتن فى عرضه ، وإما مطاوعة من تفكك الماضى السقيم ، تصده عن أعالى الأمور إلى أدانيها فى الأدب وغيره ، قناعة بالتافه اليسير ، تخف مئونته ، ويسهل تناوله ، وتلتقى الدعة فيه والاستقرار .

وإذا كان الجمهور المتعلم منصرفا حقا عن القراءة أيا كان المقروء ، فما لهذا الأدب الماجن يزداد على الأيام سطوة وذيوعا ؟ نعم ، لقد بدأ أول أمره هزيلا بائسا ، لا يكاد يتماسك تخاذلا ، ولا يأتلف شعثا وسوء حال : كأن كتابه نفرا من صغار الأدباء ومجانهم ، وكان قراؤه بعض الخليين من أهل الدعابة والتظرف ، ولم يكن يقرؤه من غيرهم أحد إلا لماما ، أو فى أحوال قليلة تضيق النفس فيها ملالة أو حرجا ؛ فتتسلط عليها رغبة ملحة أن تردد النظرة العاجلة بين ألوان من المشاهد ، التماسا للتسلية والتفريج . لكنه اليوم تغمره النعمة ، وتبدو عليه دلائل البذخ فى أدواته وأوراقه ، وفى طبعه وصوره ، وفى كل ما يتصل به . وأصبح يتولى الكتابة فيه بعض المثقفين من أهل النباهة والشأن ، ويواظب على قراءته جمهرة القارئين . وبخاصة الفتيان والفتيات من طلاب المدارس والمستخدمين لأنهم يجدون فيه مادة للتندر ، وزادا يعينهم على اصطناع التماجن والإضحاك . وبلغ من طغيان هذا الأدب ، واستفحال خطره ، أن بعض المجلات الجدية اضطرت أن تغير وجهتها ، وتجرى فى تياره ، بعد أن نزعت جدها وتصونها ، وفاء بحاجة السوق ، ونفاسة على المجلات الماجنة أن تذهب وحدها بوفرة الربح وسعة الانتشار .

إن هذا الأدب يجنى على اللغة والأخلاق معا : يجنى على اللغة بالصد عنها ،

والدعوة إلى العامية من طريق الإيحاء . فهو قد استغوى جمهرة القارئين ، واجتذبهم إلى نتاجه ، فوهنت صلتهم بالأدب الجد ، وغلبت عليهم الوحشة بل النفرة منه ، وهانت عليهم الفصيحة ، حتى كأنهم لا يرون حاجة إليها ، ولا يجدون فى أنفسهم رغبة التزود منها ومحاكاة أساليبها الرفيعة كتابة وتخاطبا ، وأصبحت الدعوة إليها . والحرص على اصطناعها ، من دلائل التشدد والتزام ما لا يلزم فى رأى كثير . ومن هؤلاء من يعلم أكثر من غيره أن مخالفة اللهجة الأصلية فى التخاطب باللغات الأجنبية ، أو مجرد الخطأ فى رسم كلماتها ، أو أداء بعض حروفها ، من الهنات المعينة التى يجب علاجها والتنزه عن الوقوع فيها ، اتقاء التهكم والسخرية . ثم إن هذا الأدب يوحى إلى قارئيه أن يقلدوا مذاهبه ، ويأخذوا فى العبارة إخذة ، لطول تمرسهم به ، وإقبالهم عليه . وهى عبارة سخيفة ، تشيع فيها العامية كما تشيع الرقاع فى الثوب الخلق ، بل إنها لا تسلم بعض الأحيان من العامية الساقطة المستهترة ، يصطنعها أرذل السوقة فى مجونهم ومباذلهم . ذلك بأن أصحاب هذا الأدب همهم فى إضحاك القارئ ، وبعث الارتياح فى نفسه . فإذا أعوزهم ذلك فى عرض الوقائع ، أو ابتداع الأخيلة الطنزية ، اعتاضوا منه بالنكتة اللفظية يلتمسونها فى التورية ومفارقة الأسلوب ، فإذا أمثال أو عبارات من العامية ، تأخذك على غرة منك ، فيكون لها عندك ما لكل جديد مباغت ، من نشوة ، وانبساط .

والموضوعات التى يتناولها هذا الأدب ، ويفرغ عليها من جهده - هى فى الأكثر الغالب تافهة هينة الشأن ، لا تكاد تلمح فيها أثارة من قدوة حسنة أو مثل صالح ؛ لأن أصحابه (عفا الله عنهم) لا يريدون من هذه الناحية أيضا إلا اجتذاب القارئ ، وتملق الغرائز الدنيا بهيج نوازى الشباب والمجانة . فهم لذلك يتخيرون قصص الخلاعة والاستهتار بما تنطوى عليه من مراودة وإغراء ، ويتسقطون أخبار الغرام الأثيم ، وحيل الفساق فى اقتناص الفريسة وستر المخازى ، ويسترقون أسرار البيوتات وأنباء بعض الطوائف الليلية فى أمورهم الخاصة . ونحو هذا من صور الحياة العابثة .

وما نظن أحدا يشك أن فى مثل هذه الموضوعات خطرا على أخلاق الشباب ،

أو أن فيها هذا الخطر على الأقل إذا بقى للأدب الماجن هذا التسلط والاستئثار. إنه إذ ذاك أجدر أن يوحي إلى القارئ أن الحياة ملهى مستباح، ليس فيه حمى ولا له قيود، وأنه وجده يوشك أن يكون المتخلف المحروم. فما له لا يكون كبقية الناس: ينتهك ما ينتهكون، ويقترف ما يقترفون، ثم يظهر مثلهم العفة والتصون، ويقول بلسانه عن التدين والفضيلة كما يقولون! ولا عجب، فللشباب عواطفه المتوفزة، ومقاييسه الخاصة.

ومضرة أخرى يجنيها هذا الأدب على قارئه، أن إدمانه يشل عقولهم، ويعودهم القناعة بالتافه القريب من الحقائق والمعلومات، فيقفون عنده مادة لحياتهم الفكرية، ولا يطيقون التماس الحقائق القيمة الفنية، ملالة منها، واستثقالا لمؤونتها من الجهد والمصابرة والجد. وهؤلاء بعض شبابنا المتعلمين من مدمني قراءته. تراهم ويا للخيبة والأسف لا يخجلون أن يعرفوا عن بعض الممثلين والممثلات ومن إليهم، ما لا ينشطون لمعرفة معشاره أو الاستماع لحديثه عن أبطال التاريخ، وزعماء الشعوب، وأساطين العلوم والفنون.

وإذا قيل لأصحاب هذا الأدب: رويدكم، بعض هذا التمادي والإصرار؛ قالوا: دعوة إلى النفاق والرياء. كأن الصراحة في رأيهم تتسع وتمتد، حتى تتناول الإباحة العارمة، لا تتقيد بقيد، ولا تقف عند حد. وهؤلاء أو أكثرهم ممن يرون من الخطأ الجسيم والجهالة العمياء أن تخالف تقليدا من التقاليد التي تفرضها الحياة الآلية، ذات المراسم والنمط الواحد فيما لا طائل تحته، ولا ضرر من إغفال التقيد بقيوده.

إن على الأدباء والمربين في هذا البلد واجباً وطنياً، لا مفر لهم من أدائه فرادى وجماعات؛ لصيانة اللغة والأخلاق من أفاعيل هذا الأدب، وسوء تأثيره عليهم أن يجعلوا إنتاجهم من الأدب شائقا جذابا في موضوعاته ومناهج بحثه، في أسلوبه وعباراته، في إلقائه وطرق تعليمه، في ورقه وطبعه، في كل شيء فيه، وكل ناحية من نواحيه. وعليهم أن يدأبوا في اجتلاء نفائس الأدب القديم، وتيسير الإفادة من أمهات كتبه: بطبعها الطبع العصري الأنيق، وتهذيب ما تدعو

الحاجة إلى تهذيبه ، وشرح مفرداتها الغريبة وأساليبها الرصينة شرحا كافيا ، يدنى البعيد ، ويكشف عن المرمى . ويغنى عن المراجعة ، فليس البحث أو التمحيص من الأمور الهينة أو المحببة إلى كل قارئ . عليهم أن يعملوا هذا وغيره ، مما يجتذب جمهور القارئين ، إلى الأدب الجد ، ويُوزعهم أن يتروّوا من مناهله ، ويتأدبوا به .

أما أصحاب الأدب الماجن فإنا نُهيب بوطنيتهم وإخلاصهم لبلادهم أن يتدبروا عاقبة هذا الأدب ، ويسألوا أنفسهم عن مدى تأثيره ، إذا بقى على هذه الحالة ، وظلوا هم بموقفهم حياله من التمكين له ، والافتنان فيه ، ومهما يكن رأى الناس فى هذا الأدب على حالته الحاضرة ، فالذى لا يقبل فيه شك ولا خلاف - أنه إذا أصلحت لغته وموضوعاته ، يصبح أدبا طيباً رشيداً ، لا غبار عليه ، ولا مطعن فيه .

فنحن لذلك إنما نريد بما نكتب عنه أن ندعو إلى تقويمه ، وتغيير وجهته ليس غير : نريد أن تكون لغته قوية متينة خالصة من أوراق العامية ، وموضوعاته شريفة مبرأة من المجون والابتذال . وبحسبه النقد والاجتماعيات وما يماثلها من الموضوعات ، ففيها متسع لجولاته عظيم . ولا ريب أنه يومئذ يفضل دعابته الحلوة وخياله المرح ، وتهكمه المرير يستطيع أن يخدم الصالح العام خدمة جديرة بأطيب الحمد والثناء . والله الهادى إلى سواء السبيل .

على النجدى ناصف